

قراءة في كتاب “الفراصة” لفخر الدين الرازي

في البدء لا بد من تبديد الوهم الذي سينتابك أيها القارئ وأنت ترى هذه الكلمة (الفراصة)، فلا ريب أنها تعني لديك علما متعلقا بالميتافيزيقا وليس قابلا للتعلم، إذ الشأن في هذا النوع من العلوم أن يكون “لَدُنِّيًّا”، لكن الفراصة التي كتب عنها الإمام **فخر الدين الرازي** ونقدم لك كتابه فيها اليوم ليست تلك التي خطرت لك، إنها علم آخر مستقل له قواعد وضوابط ظاهرة معروفة، وهو أكثر علاقة بالطب، ولكنه ليست له علاقة بالغيب واستشرافه، وقد حرص الرازي على التمييز بين العلمين، وهذا ما سأليناه لك.

الفراصة التي تشيع بين العامة هي إشراق روعي مرجعه إلى صفاء النفس بالإيمان والعبادة والتزكية، إضافة إلى استعداد روعي يكون لدى صاحبها، وهي التي يندرج فيها الحديث: “اتقوا فراصة المؤمن”، أو هي كما عرفها الرازي في كتابه: “أن يحصل خاطر في القلب أن هذا الإنسان من حاله وخلقه كذا وكذا، من غير أن يحصل هناك علامة جسمانية، ولا أمانة محسوسة”، ورغم أن هذا النوع علم صحيح وقدرة روحية لا تنكر إلا أنه أصبح بابا واسعا للشعوذة وادعاء الغيب، وقد بين الرازي في مقدمة كتابه الذي بين أيدينا أنه لا يتعرض للفراصة بهذا المفهوم.

أما النوع الثاني الذي هو موضوع الكتاب الذي سنعرض لك أهم مضامينه هنا فهو كما عرفه الرازي: “الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة”، وهو علم كما وصفه الرازي أيضا: “يقيني الأصول ظني الفروع”، يعتمد على الفطنة والضبط والحفظ والمعرفة ببعض أساسيات الطب، الأول إذن علم عرفاني إشراقي والثاني علم برهاني قياسي، وهو علم يستفاد منه في معرفة طباع الناس وأخلاقهم بناء على أمارات ظاهرة على أجسادهم وفي أبدانهم، ويمكن أن يستفيد منه القادة والسياسيون في إسناد المسؤوليات وإبعادها، كما قد تستفيد منه دور القضاء وإدارات المباحث الجنائية في التعرف على الجناة ومن لديهم قابلية ارتكاب الجريمة إلى غير ذلك من فوائد ومزايا.

قسم الرازي كتابه إلى ثلاث مقالات (فصول)، فهو في المقالة الأولى يعرفنا بالفراصة والمزاج، ويبين فضيلة هذا العلم في الكتاب والسنة والعقل، ثم يبين أنواعه ويجزم بأنه لن يتعرض إلا إلى النوع الذي يجري فيه التعلم والتعليم معرضا بصريح العبارة عن التعرض للنوع الآخر الذي عرفناه آنفا، ثم وضح الطرق التي يمكن بواسطتها معرفة أخلاق الناس، والأمور التي تجب مراعاتها عند الرجوع إلى هذه الطرق.



أما المقالة الثانية فإنه تعرض فيها لعلامات الأمزجة الكاملة حتى يتوسل بمعرفتها إلى معرفة: [الاعتدال](#) والاختلال، مستطردا علامات العبقرية، مؤكدا أنه لا بد للعبقري من علامة ظاهرة تدل عليه، فإذا أن يكون مفرط الطول أو مفرط القصر أو لديه ضخامة أو ضالة مثيرة في أحد أعضائه مثل الرأس أو العينين أو الشفتين، وأن يكون له تميز سلمي أو إيجابي في خلق معين، كأن يكون مفرطاً في النوم أو مفرطاً في الاستيقاظ أو هادئاً بدرجة مثيرة أو قلقاً بشكل غريب إلخ، وهي الأمارات ذاتها التي يتحدث عنها علماء النفس اليوم، أما المقالة الثالثة فقد تناول فيها دلالة الأعضاء الجزئية على الأحوال النفسية، واستفاض في ذلك خلال سبعة عشر فصلاً بتمامها اكتمل الكتاب.

وقد كان الرازي دقيقاً منهجياً وهو يخوض غمار بحثه في علم الفراسة، وقد أبان عن فهمه المستوعب له من خلال أمور عدة، أهمها -في نظري- استلاليه من بين كثير من العلوم القريبة منه، والتي اشتبهت به في العصور التي سبقت الرازي لدى كثير من العلماء، فعقد فصلاً كاملاً للحديث عن العلوم القريبة من علم الفراسة والتي ليست منه، وذكر منها ثلاثة أنواع يجمعها أنها -حسب الرازي- لا يمكن ردها إلى الأصول العلمية، مثل: ما يوجد في أبدان الناس من الشامات والخيالان، وما يكون في الأعين من الاختلاج، وما يظهر في أبدان الخيل من الدوائر التي كان العرب يتيامنون ببعضها ويتشاءمون بالبعض الآخر، ومنها أيضاً علم الخطوط التي توجد في الأكف والأقدام والتي تسمى أسراراً، ومنها ما يدعون من أن في أكتاف الغنم خطوطاً إذا قوبلت مع الشمس عرف المتفرّس من خلالها أحوال الفلك والناس، إلى غير ذلك مما استبعده الرازي عن كتابه الذي أراده كتاباً علمياً واضح الأسس والقواعد والمقاييس.

ويتميز كتاب الفراسة للرازي كما قال محققه -مصطفى عاشور- بحرص صاحبه الرازي على [الصدق](#) واحترامه لعقلية القارئ، وهو يخوض به في تلك المسائل الدقيقة، ويعطيه مفتاح كل شخصية، وقد ظهرت شخصية الرازي العلمية الموسوعية وعقله الباهر في هذا الكتاب الذي استطاع أن يؤطر فيه ثقافة الفراسة لدى العرب ضمن نظرية علم الفراسة لأرسطو، الذي لخص الكتاب كثيراً من أفكاره وتجاوز بها إلى آفاق علمية وفلسفية أرحب وأوسع.



وقد انتبه الغربيون في بدايات القرن المنصرم إلى أن الأحوال الظاهرة لبدن الإنسان -كما سماها- الرازي تمكن من التعرف على الأحوال الباطنة، فهذا ألكسيس كاريل صاحب الكتاب الأشهر في القرن العشرين "الإنسان ذلك المجهول" يقول: "إن قسّمات الوجه تعبر عن أشياء أكثر عمقا من وجوه نشاط الشعور المخفأة؛ ففي هذا (الكتاب المفتوح) يستطيع الإنسان أن يقرأ -لا فقط- الرذائل والفضائل والذكاء والغباوة والإحساسات والعادات التي يحرص الفرد على إخفائها؛ بل أيضا تكوينه".

هو إذن علم عظيم النفع في عصرنا هذا، وقد اشتهر لدى الغربيين علم (لغة الجسد Body language)، وهو جزء قليل من علم الفراسة الواسع العميق الذي نقدم كتاب الرازي فيه لقرائنا اليوم، وقد تطور علم لغة الجسد في الغرب وأصبح جزءا أصيلا من مناهج الدراسات الإدارية.

فكيف يستطيع المسلمون الاستفادة من تراثهم العميق حول الفراسة وتطويره ليصبح جزءا من استراتيجية النهضة والتغيير التي ينشدونها؟ أم هل سيبقون عالة على تسقُّط ملاحظات بسيطة وسطحية لدى علماء الغرب حول هذا العلم الذي يمكن القول إنه عربي النزعة، وذلك لما يمتلكه الإنسان العربي قديما من فطنة وذكاء مكناه من قهر الطبيعة الجغرافية القاسية التي كان يعيش فيها، حيث لا ترحم الإنسان إلا فطنته وذاكرته وحده.